الفصـل العاشـر

مجاهـدة النفس سبيل النجـاة

أن طبيعةُ النفس البشَرية تميل إلى كل ممنوع فهو لها مرغوب، وتنفر من القيود، فتدفع الإنسان إِلَى الطُّغيانِ والظلم، و اتباع الهوى، وتفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، فبينما يدعو الله- تبارك وتعالى- الإنسان إلى الانتهاء عن المعاصي والتحلي بالطاعات، بالتزام أوامر الرحمن واحترامها، ووضعها موضع التنفيذ لا موضع التجاهل، وذلك بالخوف من الله والذي يعني التزام أوامره واجتناب نواهيه ويكون ذلك بنَهْيِ هذه النفس الأمَّارة بالسوء عَنِ الهَوى وعن كل ما يودي بها إلى الهلاك.

فمن طبيعة الإنسان الضعف أمام الهوى والملذات والشهوات والمفاتن فدائما كل ممنوع مرغوب قَالَ الله تَعَالَى:

:﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (٢٨)النساء والضعف هنا قد يكون عامًّا، يشمل شتى أنواع الضعف، كضعف العزيمة وضعف الصبر على المكاره والصبر على قهر الهوى والشهوات؛ لذلك أعانه الله تعالى بالنصح والإرشاد

على يد الرسل والأنبياء، واشترط- تبارك وتعالى- على نفسه ألا يعذب بشرًا قبل أن يرسل إليهم من ينصحهم ويبين لهم طريق الخير من طريق الضلال ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ (١٥) لإسراء

ولهذا أتم الله الدين برسالة محمد صل الله عليه وسلم وجعله مرسل للعالمين وليس لأحد بعد القران حجة واتم رسالته مخبر بذلك فى كتاب عزوجل.

" الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣)المائدة

فالنفس الأمارة بالسوء تقود صاحبها إلى اتباع الشهوات كما أوضحنا سالفا فى عرض معناها، فينغمس في ملذات الدنيا وينسى الآخرة، وفوق ذلك فإن أغلب المصائب التي تلحق بالبشر مردُّها إلى اتباع هوى النفس وما يجنيه الإنسان من ذلك، والله تبارك وتعالى يبتلي الإنسان بالشهواتِ؛ فإذا كبح جماح نفسه وامتنع عن الشهوات فازَ ونجا ونال رضا الله وإلا خاب وخسر وهلك..

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾(٧٩) النساء

وقال تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (١٦٥)آل عمران

وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠)﴾ (الشورى)،

وقال تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (٥٣)لأنفال

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١١)١لرعد:

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾

(١٦٥)آل عمران

وعن أبي ذرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله- ﷺ- فيما يروي عن ربِّهِ عزَّوجلَّ:

"... يَا عبادي! إِنَّما هي أَعمالُكم أُحصيها لكم ثمَّ أُوفِّيكُم إِيّاها؛ فَمَنْ وجدَ خيرًا فَلْيحمدِ اللهَ، ومَنْ وجدَ غيرَ ذَلِكَ فلا يَلومَنَّ إِلاَّ نفسَه"، فعندما يغيّر الإنسان طاعة الله بطاعة الشيطان تتوالى المصائب فتصبح حياته ضنكًا"

حديث قدسي

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦)﴾ (طه)،

وهنا لا يلومن غير نفسه، وفي المقابل عندما يغيّر الإنسان طاعة الشيطان واتباع خطواته والرجوع الى سبيل الحق بطاعة الله، فإنه ينال رضا الله وتصبح نفسه مطمئنةً راضيةً قانعةً.

مجاهدة النفس:

هي السبيل لقهر النفس الأمَّارة بالسوء؛ فعن أبي ذرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: "أفضل الجهادِ أَنْ يجاهد الرجل نفسه وهواه" (صحيح الجامع)

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٦٩)العنكبوت

وروى مسلم عن أبي مالكٍ الأشعريّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم: "... كلُّ النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسهُ فمعتقها أَوْ مُوبِقُها أي أنّ كلَّ إنسان هُوَ ساعٍ فِي هلاك نفسه، أَوْ فِي فِكاكها، فمن سعى فِي طاعة الله، فَقَدْ باع نفسَه للهِ، وأعتقها مِن عذابه، ومن سعى فِي معصيةِ الله، فَقَدْ باعَ نفسَه بالهوان، وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه".

ويكون جهاد النفس بمراقبتها حيث يكون الإنسان بصيرًا رقيبًا على نفسه، يرى عيوبه ويعلم ما تكن نفسه من امور لا يعلمها إلا الله فهو بنفسه بصير فكلما استحضر بقلبه خشية الله سعى كل السعي لأصلاحها ﴿بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)﴾ (القيامة).. فجب ان يكون رقيبًا على نفسه قبل أن يكون رقيبًا على الآخرين، يصلح نفسه قبل أن يصلح الآخرين، يبدأ بنفسه قبل الآخرين.

عَنْ أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُول الله- ﷺ-: "يُبْصِرُ أحدكم الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَنْسَى الجِذع فِي عَيْنِهِ". رواه البيهقي

فمن ملك نفسه وقهرها انتصر عَلَى أشدِّ أعدائه، قَالَ تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٩)الحشر

فالفوز في وقاية شرِّ النَّفْس وشحِّها، وَهُوَ تطلعها وتوقها إلى الشهوات.

ويكون جهاد النفس ايضا بمداومة تزكية النفس بالطاعات والذكر الدائم لله ومداواة الصلاة على النبي صل الله عليه وسلم وأشغال القلب واللسان بها: ففي ذلك قَالَ تَعَالَى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾ (الشمس)، أَي: أَفلحَ من نجح في الفوز بطاعةِ اللهِ، وخابَ مَنْ حَقَّرَها بمعاصي اللهِ، وفي الحديث سُئل رسول الله- ﷺ-: مَا تزكية المرء نفسه يَا رَسُول الله! قَالَ: "يعلمُ أنّ اللهَ معه حيث مَا كَانَ".

ومن أعظم سبل مجاهدة النفس الاعتصام بالله ويكون بشغل القلب بذكر الله وحضوره: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٠١) آل عمران.

وقال سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٧٨)الحج فالاعتصام بالله هو السبيل إلى الاستقامة على طاعة الله، فيتولاَّه الله وينصره على الشيطان.فمن كان في معية الله لن ينال منه الشيطان ما دام من المخلصين.

فمن وكله الله إِلَى نفسه يقول عنه ابن القيم في الداء والدواء (١٣٠) "انقطعت عَنْهُ أسبابُ الخيرِ واتَّصَلَتْ بِهِ أسبابُ الشرّ، فأيُّ فلاحٍ وأيُّ رخاءٍ وأيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطعتْ عَنْهُ أسبابُ الخيرِ، وقُطِعَ مَا بينه وبين وليّه ومولاهُ الَّذِي لاَ غنى لَهُ عَنْهُ طرفةَ عينٍ، وَلاَ بُدَّ لَهُ منه، وَلاَ عوضَ لَهُ عَنْهُ، واتَّصلت بِهِ أسبابُ الشرّ، ووصلَ مَا بينه وبين أعدى عدوٍّ لَهُ: فتولاه عدوُّهُ، وتخلَّى عَنْهُ وليُّه؟! فَلاَ تعلمُ نفسٌ مَا فِي هَذَا الانقطاعِ والاتِّصالِ مِنْ أنواعِ الآلاَمِ وأنواعِ العذابِ"!!.

ومن تولاه الله ولم يكِلْه إلى نفسه حبَّب إليه الإيمان وكرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان؛ قال تَعَالَى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ الحجرات.

فاللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، يا رحمن يا رحيم وكن لنا وليا ونصيرا.

"رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)البقرة